Revue des lettres et de traduction. — N’ 3 (1997), ص. ٦١-٧٣: أنطوان صياح. — في / التربية والثقافة: أي إشكالية

I. Education II. Culture

PER L1037 / FL70588P

التربية والثقافة:
أي إشكاليّة

أنطوان صيّاح
كليّة التربية – الجامعة اللبنانية

منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، وهو يتطلّع الى نفسه والى ما ومن حوله، متسائلاً في حياته القصيرة عن الطريقة الفضلى في تجييش الماضي ومنجزاته في خدمة الحاضر وفي التحضّر لمستقبلٍ زاهر وواعد. وهو في تطلّعه هذا، إنما يحاول أن يؤبّد الزمن الهارب منه لا محالة؛ فما أن تصله لحظة من لحظات المستقبل حتى تتوارى مسرعة في الماضي المتمادي في الإبتعاد والإغراق؛ وكيف له أن يحتفظ من هذا الزمن المتواري بعبره، وبما تعلّمه منه، وبما ينوي أن يحتفظ به منه لمستقبله؟ إن محاولة الإنسان الردّ على هذا التحدّي الكبير دفعه إلى السعي للإنتصار على الزمن بتسجيل منتجاته وبتدوينها تاركاً إيّاها شواهد حيّة على مدى تقدّمه في ما اصطلح على تسميته بالحضارة، أو بالحضارات التي انتشرت في أرجاء المعمورة، في ما عرف منها وما لم يعرف منها حتى الآن.

وإذا كانت الشعوب القديمة قد تركت لنا حضارات غنيّة كانت وما تزال تشكّل تعبيراً صادقاً عن الثقافة التي عاشتها ومارستها وللثقافات التي عايشتها فتأثرت وأثّرت فيها، فإن لكل شعبٍ مهما علا أو انخفض في سُلّم تقييمنا لتحضّره، حضارةً يدوّنها على الزمن وثقافة يعيشها ويعبّر بها عن ذاته وعن تطلعاته، هي الألصق بذاتيته والأكثر تعبيراً عن عمق ذاته الجماعية.

والإنسان الذي حاول الإنتصار على الزمن في بعده العمودي المتمادي في القدم عن طريق مآثره الحضاريّة الشاهدة على الزمن، وفي بعده الأفقي المعاصر عن طريق التنوّع في التعبير عن الحياة الثقافية المتجلّية في الصحافة والمسرح والموسيقى

وفي النشاطات الثقافية من محاضرات ومعارض واحتفالات وفي سائر وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة، رأى أن مسعاه لن تؤمن له سبل النجاح إلا إذا سخّر التربية لخدمة نقل الثقافة عن طريق المحافظة عليها وتجديدها والتوسّع في طرق التعبير عنها. وهذا ما أدّى إلى حتميّة التفاعل الذي لم يكن دوماً تفاعلاً حقاً ومنتجاً بين التربية والثقافة فوقع في بعض الأحيان صراع حاد بين ركني هذا التفاعل، كما حصل في بعضها الآخر انسجام مغنٍ.

وممّا لا شك فيه أنّ العلاقة بين هذين الركنين في انتقالها المتواصل بين الصراع الحاد والإنسجام المغني إنما تطرح إشكاليّة متجددة تجدّد الإنسان في تطوره الإجتماعي وفي مساره الإنساني والروحي. ولا بدّ لنا في محاولة التفكير في هذه الإشكاليّة أن نبدأ من البداية أي من تحديد كلٍّ من المفهومين ومن عرض موجزٍ لمميّزات كلٍ منهما مع عدم إغفال المسائل والمشكلات الجوهريّة التي تشغلهما وصولاً إلى دراسة العلاقة الإشكاليّة بينهما كما نطرحها ونعاني منها ونجسّدها في عصرنا الحاضر، في مؤسساتنا التربويّة وفي نشاطاتنا الثقافيّة.

الثقافة

لا بد لنا في معرض تحديدنا للثقافة أن نميّز بين الثقافة والحضارة من جهة وبين الثقافة والتراث من جهة ثانية؛ فالثقافة تختلف عن الحضارة في أنها تطال الإنسان في نواحي تطوّره وتفاعله التي يعبّر بها عن ذاته في كتاباته وفي طرق عيشه، أما الحضارة فيتّسع مفهومها ليشمل نواحي العمران والتقدّم العلمي والتكنولوجي في مجمل ما يجسّده نشاط الإنسان العملي والعلمي. هذا وليس المفهومان منفصلين أو متعارضين إنّما هما متكاملان، فالثقافة تجسّيد حيٍّ دائم الحركة والتجدّد لمعطيات الحضارة، والحضارة خلاصة عميقة للممارسة الثقافية المترسخة في الأبعاد الوجوديّة للحضارة.

أما التمييز بين الثقافة والتراث فهو تمييز بين وجهين مشتركين لمعطى واحد حسب الجهة التي ننظر إليه منها؛ فالتراث هو حصيلة التراكم الثقافي لأجيالٍ وأجيال من البشريّة، وهو حيٌّ في وجدان من يحمله ويأخذ به، أما الثقافة فهي نتاج الحياة

في تفاعلها في وجدان من يحياها متفاعلاً معها، مؤثراً فيها ومبدعاً. وهذا ما يدفعنا إلى القول إن مسرح الثقافة الأول هو الإنسان الفرد، إنه الفاعل فيها والمستفيد منها.

وإذا كان البعض يعتبر أن الثقافة هي خلاصة العلوم والتجارب البشرية والدينية حين يمتلكها الفرد فتوجّهه وتوحي إليه، فالبعض الآخر يقصرها على تهذيب المواهب بالمعرفة والتمرّس بالتراثات الفكريّة والأدبيّة والفنيّة ممّا يؤدي إلى غنى فكري واسع يسمح للعقل البشري أن ينسّق ويوحّد بين الثقافات؛ أما من تمرّس بالثقافة العميقة التي ترفدها معرفة عميقة باللغات التي أنتجت هذه الثقافات فهو يرى «أن الثقافة الحق غوصٌ أصيل في التراث العالمي العظيم المتراكم وامتصاص كياني له وتوحيد ذاتي به، بحيث يصبح المثقف منه وفيه وله، وبحيث يمثله ويتكلّم باسمه ويتحاكى ويتحاور في القمّة مع أهل القمم»[١]

إذا كانت هذه التحديدات لمفهوم الثقافة تتجّهُ وجهة النخبة في نظرة واضحة إلى تفاعلها مع الثقافة وإلى محاكاتها، فإننا نميل إلى طرح تحديد أشمل وأوسع للثقافة يشمل مختلف مظاهر الحياة المعاشة من فئة معيّنة من البشر، فنقول: «الثقافة تمثّل مجموع العادات والإعتقادات والقيم والأهداف والتقاليد، وطرائق التفكير والكلام والعمل والعيش لمجموعة بشريّة معينة تعيش في إطار جغرافي محدد»[٢]. إن هذا المفهوم إذ لا يهمل المعنى الروحي والمعنى الأخلاقي اللذين أشارت إليهما التحديدات السابقة فهو يعطي أهميّة خاصة ليس للوجه المفكّر من الثقافة إنما للوجه المعاش من قبل فئة معيّنة من البشر. وهو بذلك لا يقلّل من دور الأفراد المفكّرين في تشكّل الثقافة إنما يدرج دورهم في إطار مساهمتهم في خلق ثقافة شاملة تطال مجموع أفراد فئة معيّنة بحيث لا يفصل بين ثقافتهم وبين ثقافة العامة في دور كل منهما في تشكيل ثقافة هذه الفئة من البشر، مع عدم نفي إمكانية التنوّع الثقافي الناتج عن كل مجموعة من مجموعات هذه الفئة. والثقافة وإن كانت تشمل هذه

---

(١) شارل مالك في مقالة في جريدة النهار، الأحد، ١٩٨٢/٩/٢٦.

(٢) أنظر POLIN R., Peut-il exister un ordre politique mondial, dans *Revue des Sciences morales et politiques*, Paris, 1986, nº. 4, pp 611 - 626.

المجموعة من المفاهيم فإن ما يصهرها هو الحياة التي تفعل فيها فعلها فتجدِّدها بصورة دائمة وتبقى الثقافة في تغيرٍ مستمر. وأبلغ دليل على هذا التغيُّر المستمر هو تغيّر عاداتنا وتقاليدنا وطرائق تفكيرنا وكلامنا وعيشنا وعملنا بفعل عامل الزمن وإن كان هذا التغيّر لا يطال بالنسبة عينها كلاً من هذه العناصر كما لا يطالها في الوقت عينه. وذلك ينتج من تأثير عوامل متنوِّعة، تحاول امتلاك ناصية وضعنا الثقافي، قد لا يمكن حصرها لكننا نستطيع أن نميِّز فيما بينها العناصر التالية:

١- غزو ثقافة وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة والمرئيّة المسموعة جميع ميادين حياتنا، وهي ثقافة غربية المنشأ والقيم تقوم دعائمها على إثارة غرائز الإنسان، وعلى الاستهلاك دون أعمال الفكر، وعلى ترويج مفاهيم خاصة في العلاقات الإنسانية.

٢- تطوُّر مذهل للتقنيّات الحديثة يشتمل في ما يشتمل عليه على أنظمة تواصل الكترونيّة متطوّرة لا تفتأ تدخل الأسواق الإستهلاكية وتطالعنا الشركات المنتجة بأنظمة أخرى أكثر تطوّراً وتعقيداً كالانترنيت وغيره.

٣- الإكتشافات البيولوجيّة المتسارعة في الميادين الطبيّة بصورة عامة وفي ميداني الوراثة والإخصاب بصورة خاصة من اختيار جنس المولود إلى تغيير الجينات المكوِّنة له إلى الإستنساخ الجيني.

٤- تغيُّر المشهد السكّاني العالمي نتيجة انخفاض الولادات في بلدان وازديادها في بلدان أخرى، ونتيجة الهجرات الداخليّة والخارجيّة في الوقت عينه. فالمدن تكبر وتتكاثر وتكتظ بالسكان والأرياف تتقلّص وتقفر من سكّانها مع ما يستتبع ذلك من تغيُّر في العادات والإعتقادات وطرق العيش والعمل والتفكير.

٥- تمايز واضح في أساليب الحكم وفي فهم الديمقراطيّة تبعاً لتاريخ الشعوب وللإختبارات التي مرّت بها في حقب تاريخها، فالحريّة والعدالة والديمقراطيّة قد لا تعني الشيء عينه في البلدان المختلفة كما أنها قد لا توحي التصرُّف عينه في منطقتين مختلفتين من العالم.

٦- توزُّع متفاوت للعلم ولمصادر إنتاجه في العالم، فالعلم المتقدِّم ينتج في بلدانٍ معينة وخلافه متروك لبلدانٍ أخرى.

٧- ميل واضح في العالم لاستبدال الثقافة القوميّة بثقافة الإستهلاك والإمتلاك والوجاهة المادية كمصدر لكل سلطة في المجتمع.

إن التطوُّر الإعلامي والتقني الذي نشهده في عالم نهاية القرن العشرين والذي جعل الكون بكامله قريّة كونيّة صغيرة، إذ ما إن تحصل حادثة صغيرة في منطقة معيّنة من العالم حتى تنقلها وسائل الإعلام إلى كل أنحاء العالم بسرعة فائقة، يسعى جاهداً إلى الغاء الحدود بين الثقافات من أجل الوصول إلى مشهد ثقافي عالمي قريب إلى الإنسجام والتوحّد؛ وقد أخذت بوادر هذا المشهد تظهر بوضوح في ما نشهده في أنحاء متعدّدة من العالم من تصرُّفات للشباب، وممّا يقبلون عليه من أنواع الموسيقى والأفلام ومن طرائق التعبير والتجمُّع والتحرُّك.

إن هذه المظاهر المتآلفة والمتوزِّعة على أنحاء العالم لتؤكِّد أن الإنسان المتعدِّد الإنطلاقات الثقافية إنما هو قابل للتوحُّد الثقافي وطامحٌ إليه ممّا يعزِّزُ طموح الإنسانية إلى التلاقي والسير بالإنسان إلى معارج التطوُّر والتقدُّم والنمو الإنساني.

وإذا كان هذا المشهد الثقافي العالمي هو الغالب والطامح إلى التمدُّد إلى كل البلدان بثقافاتها المتنوِّعة إذ لا قدرة لأي سلطة أن تقف في وجه هذا التمدُّد كما هو واضحٌ في البلدان الأكثر انغلاقاً في العالم، فإنه لا ينفي ضرورة النظر إلى الوجوه المختلفة للثقافة المعاصرة إذ يمكن أن نميِّز فيها بين الأنواع التالية: ثقافة محليّة وثقافة مستوردة، ثقافة منغلقة وثقافة متفاعلة، ثقافة ماضويّة وثقافة مستقبلية، ثقافة فرديّة وثقافة جماعية، ثقافة سمعيّة بصريّة وثقافة مقرؤة. فالثقافة المحليّة هي بنت البيئة المحليّة بكل خصائصها ومميّزاتها وتعرُّجاتها وصعوباتها وتاريخها ونظرتها إلى مستقبلها في البيئة المحيطة بها، وتقابلها ثقافة مستوردة تأتيها من خارج حدودها فتتفاعل معها وتتأثر بها فهي إذاً ثقافة أجنبيّة وافدة من بيئة أخرى قد تتميَّز بنواحٍ مختلفة عن الأولى. والثقافة المنغلقة هي التي تسدُّ أمام أبنائها منافذ التفاعل مع الثقافات الأخرى وهذا ناتج عن موقف سلبي من أبناء هذه الثقافة تجاه الثقافات الأخرى، وقد يكون هذا الموقف إما موقف استعلاء أو موقف دفاع وفي كلا الموقفين تقفل أبواب التلاقح والتفاعل الثقافيين؛ أما الثقافة المتفاعلة فهي التي ترحِّب بالثقافات الوافدة فتناقشها متفاعلة معها منفتحة على أي تغيير قد يدفعها إليه هذا

الإنفتاح ممّا يغنيها وينميّها. والثقافة الماضويَّة هي ثقافة ترى أن الماضي بكنوزه وبمآثره وبرجالاته يشكِّل معيناً كافياً يوفِّرُ علينا عناء التفكير الراهن في مشكلاتنا فنركن إليه دون مناقشة، وأعمال فكر سائرين بما يمليه علينا دون أخذ المبادرة في النظر إلى ما يحدث من حولنا. قد تكون هذه الثقافة ثقافة الإسترخاء والقصور الفكريين فتجانب التحدِّي متحصِّنة في الماضي؛ أما الثقافة المستقبليّة فهي ثقافة منفتحة على الماضي والحاضر ومتطلّعة بثقة واطمئنان إلى المستقبل لا ترعبها ضخامة التحديّات ولا تثنيها إخفاقات الحاضر؛ إنها تبادر الآتي من أيّامها بما زخر به ماضيها وبما حضرَّته لها من فكر وعلم وعمل؛ إنها تحسن التوقّع وتتقن التحضّر لمستقبل آتٍ لامحالة. والثقافة الفرديّة هي ثقافة كل فرد من أفراد المجتمع، تعلو معه أو تنخفض بعُلُوٍّ تطلُّعه الثقافي وهمّته وصبره، والثقافة الجماعيَّة هي الثقافة المشتركة والعامة لمجموعة بشريّة معيّنة في حقبةٍ من حقب تاريخها؛ وهي إذ تتشكّل من مجموع ثقافات الأفراد إلا أنها تتمثّل في القواسم المشتركة بينها أو بما هو غير مقبول التراجع عنه في ثقافة شخص أو مجموعة. وتختلف الثقافة الجماعيّة بين منطقة وأخرى وبين جماعة بشريّة وأخرى وبين حقبة زمنيّة وأخرى. والثقافة السمعيّة البصريّة هي الثقافة المستمدّة من وسائل الإعلام مع ما لهذه الثقافة من حدود ضيِّقة إن في الخيار، أو في طريقة المعالجة، أو في الحيِّز المعطى للثقافة فيها؛ أما الثقافة المقرؤة فهي التي ترتكز على كل ما يقرأ تاركة بذلك الحريّة للمتثقّف في أن يختار منابع ثقافته وفي أن يأخذ وقته في التمعُّن في التفكير فيها وفي إستخراج العبر وكل ما يمكنه أن يؤثّر في حياته.

أن كلِ هذا التلوُّن الثقافي يسبح في نظرنا في جَوٍّ ثقافي عالمي عام أخذت ملامحه تتَّضح في نهاية هذا القرن، وهو جوٍّ يصعب الإفلات منه إذ أنه وليد النتاج العلمي الحديث في ميدان الإتصالات التي تغمر الكون بكامله. فما عساه تكون صورة العالم الثقافيّة بعد ربع قرن من الزمن؟ هذا ما قد يصعب التكهُّن به في الوقت الحاضر وما قد يخرج عن إطار هذا المبحث الفكري.

وإذا كنَّا قد صنَّفنا هذه الأنواع من الثقافات التي تتراصف وتتجاور في وطن واحد أو في متّحد بشري واحد بما لهذا المتّحد من خصائص إجتماعيّة وإقتصاديّة وسياسيّة وإنسانيّة وروحيّة فإنه لا مناص لنا من العودة إلى مجتمعنا اللبناني ناظرين إلى حاجاته الثقافيّة التي قد يخال البعض أنَّها غير لازمة أو مؤجّلة.

لقد عالج المفكّرون هذه النواحي الموجعة من حالنا ووصلوا إلى نتائج يتّفقون عليها ويعبّرون عنها كلٌّ بأسلوبه. وأبلغ من عبّر عن هذه الحاجات حميد موراني في مقالة بعنوان «البنية البنويّة في الثقافة اللبنانيّة» في كتابه «في هويّة لبنان الثقافيّة» إذ حدّد حاجاتنا الثقافيّة بثلاث:

١- «تعميق الذاتيّة من خلال فلسفات الشك وما يقابلها، لأن اللبناني لا يواجه ذاته بروح النقد والحقيقة.

٢- تقويّة روح الموضوعيّة من خلال العلوم الإنسانيّة، ليتعلّم اللبناني كيف يسيطر على تناقضات مجتمعه.

٣- تحرير حسّ المطلق لديه، ليتخلّص من روح المساومة المركنتيليّة.»[٣]

وإذا كان لنا من زيادة نضيفها على هذه الحاجات فإننا نرى ضرورة العمل على سدّ الحاجات التالية:

١- التركيز على ضرورة التعلّم الدائم للتخلّص من آفات الأميّة المقنّعة والثقافة المفقرة ولكسر حلقات الأفكار المسبقة والخاطئة عموماً.

٢- عيش عمق مفهوم الحريّة بأبعاده الكيانيّة والوجدانيّة.

٣- تعميق الحس بالآخر وبضرورة قبوله كما هو، وكما يعبّر عن نفسه لا كما نريده نحن أن يكون.

٤- تنمية الروح العلميّة القائمة على الملاحظة والإختبار والنقد كمسلك وحيد لتطوّر الوطن ولسير أبنائه في طريق التقدّم.

إذا كانت هذه هي حاجاتنا الثقافيّة كما نراها في هذه الحقبة من تاريخنا فإن إشكاليّة ثقافتنا الراهنة تقوم على «إيجاد سبل إرساء مقوّمات فكريّة جامعة تساعدنا

---

(٣) موراني حميد، البنية البنويّة في الثقافة اللبنانية، في «في هويّة لبنان الثقافيّة»، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٤، ٢٢٦ص.

على تطوير حاجاتنا الجارفة إلى العدل بين الناس، وإلى احترام الكيان الإنساني مهما تواضع شأنه في سلّم المراتب المجتمعيّة»[٤] كما عبر عنها جورج قرم.

إذا كانت هذه هي نظرتنا إلى الثقافة في عصر التحوُّلات السريعة الذي نعيشه فكيف عسانا ننظر إلى التربية؟

التربية

التربية القديمة العهد قدم الإنسان على هذه الأرض منذ وعى ضرورة التهيُّؤ للحياة، والتحضُّر للمستقبل والتحسُّب لنائبات الدهر، والسائرة معه في مختلف مراحل تطوره وتقدمه في معارج الرقي والتقدُّم صارت اليوم في نهاية القرن العشرين وعلى مشارف الألف الثالث حسب رأي المختصّين في الإقتصاد التربوي وممتهني السياسة ومحترفيها على حدٍّ سواء، صناعة مادتها الإنسان بمختلف مراحل حياته منذ ولادته وحتى آخر عهد له بالتعلُّم؛ إنها غدت أكثر الإستثمارات ربحاً وأثمنها ريعاً عنينا العنصر البشري برأسماله الفكري المبدع.

وإذا كان هذا التحديد للتربية المحض إقتصادي قد أملته ضرورات الإنفاق وترشيده من أجل الحصول على أفضل النتائج بعد صرف مبالغ ضخمة من الناتج العام لكل بلد، فإن للتربية مداخل أخرى ننظر منها إليها من خلال هويّتها ومضامينها وأبعادها؛ وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار الوجوه التالية في التربية:

١- التربية هي في الأساس إيمان مطلق بالإنسان الفرد وبقدراته وبإمكانياته، وسعي دائم ودؤوب في وضع كل التقنيّات والمحاولات التجديديّة في الطرائق والأساليب في خدمة نموّه وتفتّحه الإنساني؛ لأن الإنسان الفرد إنما يشكّل حجر الزاوية في بناء أي تجمّع بشري، ولأن تربيته على المبادىء والقيم الأخلاقية

(٤) أنظر جورج قرم، واقع الثقافة العربيّة ومستقبلها، المجتمع التراثي والمجتمع الحي، في ملحق النهار، السبت ٣٠ آذار ١٩٩٦، ص ص ١٢ - ١٤. ووجه الردة إلى عصور الظلام، في الحكمة، ٦ حزيران ١٩٩٥، ص ص ١٤ - ٢٢.

شرط أساسي من الشروط اللازمة لإنخراطه في عقد المجتمع ولعمله على تنميته وازدهاره.

٢- التربية هي فعل تجسيد مستمر للقيم الإنسانيّة السامية، وهي في الوقت عينه فعل إيمانٍ بقدرة الإنسان على السعي نحو الخير والجمال والمحبّة عن طريق القدرات والطاقات التي وهبه إيّاها الخالق والتي تعمل التربية على صقلها وتهذيبها وتنميتها وتفجيرها.

٣- التربية هي سعي دائم للتجدُّد لا ينفك يتطلَّع بفرح وفخر واعتزاز لما أنجزته وتنجزه عقول النابغين والعلماء الذين يعملون بصمت من أجل مستقبل زاهر لأبناء البشر جميعاً دون الإهتمام للفوارق المتنوعة التي تفصل فيما بينهم؛ وهي تشكّلُ بذلك مجال تساؤلٍ دائم من العاملين فيها من مفكّرين ومعلمين وإداريين، يطرحون أسئلة ملحَّة حول الطرائق والتقنيّات والوسائل والأهداف في محاولة منهم لمتابعة التطوُّر الدائم الذي يسير فيه العالم والمتربي من داخله.

٤- التربية هي فعل تفتُّح وانفتاح يسمح لكلٍ من المعلِّم والمتعلِّم في أن يكونا في سعي متواصل لسلوك طريق الحقيقة فكراً وعيشاً وتطلُّعاً من أجل بناء لبنات الحياة على صروحٍ من الحقائق التي تطول سائر ميادين حياة الإنسان من إقتصاديّة وإجتماعيّة وسياسيّة وإنسانيّة وروحيّة؛ وذلك بهدف الوصول من هذه الحقائق الميدانيّة الجزئيّة الى سلوك طريق الحقائق المطلقة الشاملة التي لا بد أن تكلِّل سعي الإنسان في هذه الأرض.

٥- التربية هي فعل إيمان بالعلم كقدرة إنسانيّة عظيمة، وبالروح العلميّة القائمة على الملاحظة والإختبار والنقد والموضوعيّة، وعلى انتفاء الذاتيّة، كمسار وحيد لا بديل عنه لتطوّر الأوطان ولسير أبنائها في الطرق الطويلة والشاقة المؤديّة إلى التقدُّم والإزدهار وإلى احتلال المراتب التي يستحقها شعب بين شعوب المعمورة.

٦- التربية هي فعل ثقة بالمستقبل على أنه أجدَرُ من الماضي في تعليق آمالنا عليه، مما يدفع بنا إلى إعداد أبنائنا لأخذ مستقبلهم بأيديهم محاولين اكتناه تاريخهم متمثلين العبر منه وبانين مستقبلهم معتمدين على التخطيط والبرمجة والتحسُّب بعد دراسة الحاضر دراسة دقيقة مستقصينه بعين العلم والمنطق.

إذا كانت هذه هي بعض الوجوه العامة في هويّة التربية وفي أبعادها فلنا أن نضيف في لبنان بعض الملامح الخاصة التي يمكن التعبير عنها على الوجه التالي:

١- التربية في لبنان هي فعل تجذير وتجذُّر دائم في تربة هذا الوطن وفي تاريخه وهي في الوقت عينه فعل انغراس في الحاضر الآتي وفعل امتدادٍ في مستقبل شعبه وفي تطلّعاته في هذا الشرق نحو عيش كريم مبني على احترام حقوق الإنسان من حريّة وعدالة ومساواة وديمقراطيّة وأخوة.

٢- التربية في لبنان هي فعل امتثال لدعوة هذا الوطن الرسالة بين سائر أوطان المنطقة، يتجسّدُ في جهد متواصل لدى أبنائه كافة لعيش قيم الإنفتاح والتفهُّم والتحابّ على أنها إنعكاس لقيم روحيّة سامية شكّلت وتشكّل الجزء الثمين من تراثنا الروحي في هذا الشرق الذي تضيق فيه أكثر فأكثر مساحات قبول الآخر كما هو في اختلافه وتغايره وفي سعيه إلى عيش ذاته بحريّة وأمان.

٣- التربية في لبنان هي فعل ريادة يطمح بالإنسان اللبناني إلى التميّز الدائم عن طريق سلوك طريق التجدُّد وافتتاح الميادين المجهولة في العلوم والتقنيّات. وهذا ما يشكّلُ المنفذ الوحيد له ليبقى ويستمر في هذه المنطقة من العالم بنوعيّته وبمضون عقله المتطوّر والدائم التجدُّد.

٤- التربية في لبنان هي فعل أمانة لتاريخ هذا الوطن بمختلف فئاته وطوائفه، بصفحاته المشعّة بالتفاهم والتعاون وبمآسيه الصعبة وبالعبر التي تعلّمنا إيّاها، وبالكلفة الضخمة التي دفعها شعبنا ويدفعها نتيجة سيره وجهة تخالف طريق العيش المشترك القائم على التفهُّم المتبادل وعلى أن يكونَ اللبناني الضمانة الوحيدة لمواطنه اللبناني الآخر.

٥- التربية في لبنان هي المدخل الوحيد لتحقيق أماني وطموحات كل أبناء الشعب في مستقبل زاهر ومتقدّم؛ وما تعليق الأهل آمالاً كباراً على تربية أولادهم وتعليمهم وبذلهم كل غالٍ ونفيس في سبيله الاّ تأكيدٌ واضح على الأهميّة التي يعلّقونها على هذه العمليّة الإنسانيّة الإنمائيّة المهمّة.

٦- التربية هي القمينة على نقل تراثنا الوطني وعلى إحياء ثقافتنا المميّزة عن طريق جعل المدرسة المكان الأمثل لهذا التفاعل الحي بين حاضرنا وماضينا ومستقبلنا، متطلّعين إلى إنسان يتمتّع بتفكير ناقد وببصيرة ثاقبة وبفكرٍ خلاّق.

إن بحثنا في تحديد الثقافة وفي تبيان العوامل التي تؤثّر في الوضع الثقافي العالمي بصورة عامة وفي وضعنا الثقافي بصورة خاصة وفي تعداد أنواع الثقافة وفي رسم صورة لحاجاتنا الثقافيّة، ودراستنا لبعض معالم ووجوه التربية عموماً وخاصيّات تربيتنا في لبنان، ليدعونا، لارتباط هذين الميدانين، إلى البحث في إشكاليّة العلاقة بينهما. فالعلاقة الحميمة بينهما هي التي تبني حيزاً من الإحتكاك المثمر والتفاعل الخيّر لكن ذلك لا ينفي الصعوبات اليوميّة التي تواجه المهتمين بشؤون التربية في حرصهم على الأمانة للثقافة بمفهومها العام ولثقافتهم الخاصة في تجلّياتها المختلفة. هذه العلاقة المتعدّدة الجوانب والأبعاد تطرح في نظرنا إشكاليّة حادّة تتمثّل في النقاط التالية:

١- كيف يمكن للتربية، التي نريدها دائمة التطوّر، سائرة مع نبض الحياة، متماشية مع منتجات العلوم والتقنيّات الحديثة، ملبيّة الحاجات المتزايدة إلى التعلّم لفئات بشريّة واسعة، مؤمّنة شهادات ذات مضمون يتناسب مع متطلّبات سوق عمل سريع التطوّر، والتي هي في واقع الحال تقليديّة، بطيئة الحركة في التجدّد، غير قادرة على السير بخطى تواكب تقدّم العلوم والتقنيّات وتطوّر الذهنيّات، [كيف يمكن للتربية] أن تتآلف مع ثقافة متحرّكة في عالم متّسع الأبعاد، مفتوح على آفاق واسعة من التفاعل الثقافي الذي يبلغ حدود الفرض والإلزام. هنا يكمن في نظرنا الوجه الحاد، والوجه المشكلة في العلاقة بين الثقافة والتربية، فلا تربية من دون نقل أرث ثقافي تاريخي ضارب في الأعماق، ذي مضمون حيّ متفاعل، ولا ديمومة للثقافة إن لم تغنها العمليّة التربويّة وترسّخها في أذهان الأجيال الطالعة؛ لكن هل يمكن للتربية أن تتناغم مع صيرورة ثقافية متسارعة الخطى إلى حدّ فقدان المعالم في وقت قصير؟

٢- كيف يمكن للتربية التي تخضع في الوقت عينه لمتطلّبات ملحّة، تبلغ حدود التناقض، لفئات متنوّعة في المجتمع، أن تطوّر مناهجها وتجهيزاتها ومفاهيمها وطرائقها وأساليبها وأن تدرّب وتؤهّل جهازها البشري التعليمي والإداري، وأن تساهم في تطوير نظرة المستهلكين التربويّين من أهل وإدارة تربويّة وسياسيين أصحاب قرار، كي تسير بسرعة التطوّر التقني والتقدّم العلمي، وكي تستوعب ثقافة الإعلام وتستثمرها في محاولة خلق إنسان الخمسين سنة

المقبلة الذي سيكون، دون أدنى شك، محاصراً بمنتجات العلوم والتقنيّات وبما تفرضه من ثقافات حديثة قائمة على قيمٍ وأهداف وعادات قد تكون مغايرة لما نشهده اليوم؟

٣- كيف يمكن للتربية التي لا تقوم إلاّ على نقل تراث متراكم، والتي تتطلَّعُ بحكم موقعها ودورها في عمليّة بناء الإنسان إلى إكسابه ما يؤهله لمواجهة الحياة عن طريق إكسابه مهارات ثبتت أهليَّتها وفعاليتها، وعادات تأكّد نفعها، أن تحضِّر الأجيال لمواجهة التغيُّرات المذهلة التي ستواجه إنسان الألف الثالث إن في ميدان وسائل الإتصال أو في ميدان المكتشفات العلميّة، والمنتجات التقنيّة مع ما تفرضه عليهم من ثقافة جديدة مبنيّةٍ على ذهنيّةٍ في طور التشكُّل، وعلى عقليّة جديدة في التعاطي مع ظواهر الكون ومع مكوِّنات الطبيعة البشريّة؟

إن هذه الأسئلة المشكلات تشير، بما لا يقبل الشك، إلى أن على التربية أن تتبع الصيرورة الثقافية وأن تمدَّ إنسان الغد بالمهارات وبالقابليّات اللازمة للتعلُّم الدائم، وللتأقْلُم مع التغيّر الثقافي المتسارع بما يكفل له القدرة على التكيُّف مع عالمٍ سريع التغيّر ذي ملامح متحرِّكة، وعلى الموازنة بين الأخذ بالتاريخ وبعبره وبين التطلّع إلى تجدّد القيم وتغيُّر العادات والتقاليد وتعديل طرائق التفكير والعمل والعيش والتعبير، وعلى إقامة التوازن ما بين الوطنيّة والإقليميّة من جهة والعالميّة من جهة أخرى.

وإذا ما سلّمنا أنه لا مناص للتربية أن تتبع الصيرورة الثقافيّة وأن تنبثق عنها وتسير مستلهمة مظاهرها وتجلّياتها فالسؤال الذي يفرض نفسه علينا هو أنه كيف يكون هذا الإرتباط الفاعل بين الثقافة والتربية وبين التربية والثقافة إرتباطاً منتجاً يغني ثقافة الأمة وتراث الوطن ويجدِّد التربية في مضامينها ومناهجها وطرائقها وأساليبها وفي ممارساتها اليوميّة وفي تراثها في الوقت عينه؟

وإن كان قد قيل سابقاً أن السياسة بنت التاريخ والتاريخ ابن الجغرافيا والجغرافيا لا تتغيَّر فهل نملك على مشارف الألف الثالث إلا أن نقول أنّ التربية بنت الثقافة، والثقافة بنت الإنسان، والإنسان في قلب التغيُّر.

المراجع

١) قرم جورج، واقع الثقافة العربيّة ومستقبلها، في ملحق النهار السبت ٣٠ آذار ١٩٩٦، ص ص ١٢ – ١٤.

– قرم جورج، وجه الردَّة إلى عصور الظلام، في الحكمة، ٦ حزيران ١٩٩٥، ص ص ١٤ – ٢٢.

٢) مالك شارل، الثقافة والحدث، في النهار، ١٩٨٢/٩/٢٦، ص ١٢.

– مالك شارل، شهادة عمر، في الرعيّة، شباط ١٩٨٨، ٢٣٢، ص ص ١٦–٢١.

٣) موراني حميد، البنية البنويّة في الثقافة اللبنانية، في «في هويّة لبنان الثقافيّة»، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٩٤، ٢٢٦ ص.

٤) Encyclopaedia Universalis, voir Education, Pédagogie, Civilisataion, Culture.

٥) POLIN R., Peut-il exister un ordre politique mondial, dans *Revue des Sciences morales et politiques*, Paris 1986, n°. 4, pp. 611 - 626.

٦) DRUON M., *La culture et l'Etat*, Paris, Ed. Julliard 1985, 64p.